هل لهذه الذكريات
هذه الممزقِ من الأوراق -
أن تمنح ، حياةً ، ذلك الاسم
الذي يجب ان يمنحها ، هو ، الحياةَ ؟

جون دون

1631 - 1572

سعدي يوسف

إنسَ تفاصيل ..

رواية

في اوائل ١٩٨٦ ، أُرسلت الشحنات الأولى من صواريخ FIM-92A
« ستنجر » الى المجاهدين الأفغان ، لاستخدامها ضد طائرات السوفييت
والقوة الجوية الأفغانية . وكان الاستخدام القتالي الأول في السادس
والعشرين من ايلول (سبتمبر) عندما دمرت صواريخ ستنجر
ثلاث مروحيات حربية من طراز Hind Mil Mi-24
في معركة قرب جلال آباد . وفي نهاية العام كان واضحاً ان صواريخ
ستنجر مسؤولة عن تدمير ثلاث طائرات ثابتة الأجنحة ، وتسع
دوّارة الأجنحة . إن تزايد عدد هذه الأسلحة ، في القتال ،
ادى ، في نهاية ١٩٨٧ ، الى خسارة ٢٧٧ طائرة من ذوات
الأجنحة الثابتة والدوارة ، وارغم السوفييت على إجراء عدد
من التعديلات الرئيسة في طائراتهم ، كي يقللوا من مخاطر تعرضها
للصواريخ الموجهة بالأشعة تحت الحمراء .

وقد طوّر المجاهدون تكتيكاتهم الخاصة باستخدام صواريخ ستنجر ،
مستعملين السلاح ، هجومياً ، بواسطة وحدة قتالية مجهزة بعدة
قواذف على مقربة من مطار ، مانعين ، لعدة ساعات ، ممر
الطيران ، في محاولة تدمير أكبر عدد من طائرات الإسناد
اللوجستي ، وطائرات نقل الجنود ، اللازمة لإعادة تجهيز القاعدة .

ومن سوء الحظ ، ان السوفييت استولوا على اعداد من صواريخ
ستنجر ، علماً بأنهم حصلوا على التكنولوجيا الخاصة بها ، في العام
١٩٨٥ ، عبر عملية لإدارة المخابرات العامة برياسة الأركان ،
بواسطة عميل في وزارة الدفاع اليونانية .

عددٌ من الصواريخ التي تسلمها المجاهدون الأفغان ، شق طريقه
الى إيران ، وأُطلق فيما بعد على المروحيات الليلية الأميركية
التي كانت تقوم بطلعات على الخليج الفارسي . وبقي لدى الإيرانيين
سبعة من تسعة قواذف استولوا عليها . لقد استُخدم واحدٌ

في القتال ، اما الثاني فقد استعمل عليه الاميركيون ، وهو على متن زورق سريع إيراني معطوب ، بعد معركة جوية - بحرية في الخليج .

حركة يونيتا في انغولا ، تلقت ايضاً عدداً من صواريخ FIM - 92 A "ستنجر" خلال ١٩٨٦ - ١٩٨٧ ، حيث استعملت بنجاح ضد القوة الجوية الانغولية ذات التجهيز السوفييتي ، فأسقطت عدداً من الطائرات النفاثة والمروحيات ، بينها طائرة واحدة ميغ - ٢١ ، وثلاث مروحيات Mi-8 ، وواحدة ميغ - ٢٣ ، أسر طاقمها الكوبي المكون من شخصين في معارك ١٩٨٧ بجنوبي غربي انغولا .

وفي ١٩٨٧ ، زود رجال الكونترا الذين كانوا يقاتلون حكومة ساندنيستا في نيكاراغوا بعدد قليل من صواريخ FIM - 92 A "ستنجر" .

وفي الولايات المتحدة الاميركية ، تستخدم صنوف الجيش الاربعة هذا السلاح ، ولدى القوة الجوية الاميركية وحدات صغيرة مدربة على حماية المطارات والاماكن المختلفة ، في الشرق الاقصى بخاصة ، وذلك في القواعد الاربع التي تستخدمها القوة الجوية الاميركية في كوريا الجنوبية .

وقد كشف ايضاً ان اماكن إقامة الرئيس الاميركي في واشنطن وسواها ، تحميها مجموعات ستنجر متخصصة ، في حالة التعرض لهجوم جوي من منظمات إرهابية .

3/

مواصفات

صاروخ FIM-92 A

"ستنجر"

النوع : ذو مرحلتين . ارتفاع منخفض .

الطول : الصاروخ 1.52 متر .

القطر : الصاروخ 0.070 متر .

امتداد الجناح : 0.091 متر .

الاوزان

الصاروخ في البداية : 10.1 كغم .

القاذف (زائداً الصاروخ) : 13 كغم .

القاذف (كاملاً) : 15.7 كغم .

وحدة تبريد البطارية : 0.4 كغم .

نظام الحزم والحمل IFF : 2.6 كغم .

الدفع : مضخة نافورية للوقود الصلب ، ومحركات صاروخية .

الرأس الحربي : 3 كغم من مادة متشظية شديدة الانفجار مع صاعق .

السرعة القصوى : 2.2 ماخ .

اقصى مدى مؤثر : 5500 متر .

ادنى مدى مؤثر : 200 متر .

اقصى ارتفاع : 4800 متر .

ادنى ارتفاع : حوالي 30 متراً .

المصدر (بتصرف)

جين - الدفاع الجوي في ساحة المعركة

1989 - 1988

الفصل الأوّل

منذ عامين ، سكنتُ هذه المدينة .

اخترت بيتاً صغيراً ، هو في حقيقته ملحقٌ ، إلا انه منفصلٌ تماماً عن البيت الأساس ، وإن كانت الحديقة متصلة . قال مالك البيت إن بإمكاني استعمال جزء الحديقة الملاصق للملحق ، كما اشاء . وقد فعلت هذا ، عملياً ، إذ اجريت تعديلات لا اعتبرها طفيفة ، منها مثلاً ، حديقة صخرية صغيرة ، سميتها « الحديقة الجوراسية » ، لأن فيها نباتات صبّارية فقط ، ولأن سلحفاة الحديقة تزورها احياناً . أمّا القنفذ الذي كنت آمل في ان يسكن هذه الحديقة الجوراسية ، والذي التقطته ليلاً من الشارع ، فقد اختفى ، فجأة ، وإن كنت أميلُ الى فكرة انه ربما حفر له نفقاً جيداً تحت الحديقة الجوراسية .

لست ادري إن كان عليّ القول إن المدينة التي أسكنها ، الآن ، هي عاصمة . على اي حال سأرمز لها بمدينة « ع » ، لسببين اولهما أنها عاصمة ، وثانيهما انني لا احبذ ما دأب عليه الكُتّاب حين يرمزون الى شخص ، او مدينة بحرف « سين » . إن الحرف « سين » يمنح مدينة « ع » نحساً سرياً ليس من صفاتها . الذين عرفوا بقائي هنا ، استغربوا من اختياري مدينة « ع » ، فهذه المدينة ، في رأيهم ، لم تدخل ، بعدُ ، باب التصنيف ، كحاضرة . وهم يرون انني سأضيق بها ، او تضيق بي ... وفي افضل الأحوال سعف تضيق عليّ .

لكنّ لي رأياً مختلفاً .

فمدينة « ع » لم تتشكل بعدُ . اي انها لم تصل بعدُ الى إقامة قنوات ووسائل اتصال (اعمق) بين البشر ، مثل العواصم العريقة (التي عرفتها) ، فالمرء فيها ، حين يدخل ملاذاً ، يظلّ فيه ، وحيداً ، منعزلاً . وهو لا يفكر بمغادرة وحدته وعزلته ، فهذه المغادرة مضيعةٌ لوقتٍ ضائعٍ أساساً .

وتحت سؤال لا لماذا ليس لها جواب في مدينة « ع » :

لماذا يخرج المرء ؟

وكيف يخرج ؟

في ما يتعلق بي ، انا لا اريد ان اخرج ، ولهذا لن افكر في وسيلة الخروج . الوالدان ، لدعيان ، إذاً . بل لقد استبعدتها ، عامداً ، منذ قراري الإقامة هنا .

لكن في مدينة "ع" ، والحق يقال ، اموراً ما جاء به العصر ، مثل جرس الباب ، وجهاز الهاتف ، والميني ماركت ، والسيارة . اذكر هذه الأشياء اختصاراً .

كان يمكن لشخص سواي ، ان يتعامل مع هذه الأشياء الأربعة .

اما انا ، فجرس بابي صامت . وحدث مرتين أن رنّ ، فلم اكلف نفسي حتى عناء ما وراء الانتباه ، والسائل عمّن يكون ضغط على الجرس .

وجهاز الهاتف المستقر على طاولة خيزران صغيرة في الصالة التي لا اجلس فيها عادة ، ليس احسن حظاً من جرس الباب . احياناً يرنّ الجهاز ، فأتابع رنينه كأني اتابع الطيران البطيء لبعوضة . وعندما ينقطع الرنين استمتع ببقايا الرنّة الأخيرة . ولم يحدث ، البتة ، أن رفعتُ السماعة .

الميني ماركت ، اقصده بغير انتظام ، اشتري اشياء معروفة الثمن ، خبزاً ، او ماءً ، او جبناً ... أهيئ المبلغ بدقة قبل الخروج ، ادخل الميني ماركت ، اتناول ما جئت اشتريه ، اسلّم المبلغ ، صامتاً ، الى البائع ، وأعود الى المنزل . اقول اعود الى المنزل ، مع ان الميني ماركت لا يبعد إلا حوالي ثلاثين متراً أقطعها عبر خربة كانت مزروعة بالباميا .

اخيراً ، اصل الى السيارة .

اعتقد ان شخصاً مثلي ، ليس بحاجة الى سيارة . فالسيارة وسيلة حركة وانتقال . وانا لا اريد ان اتحرك وأنتقل . (أخرها قبرص)

لديّ ثلاث إجازات سوق من ثلاثة بلدان ، ورابعة دولية . والحصول على إجازة سوق محلية ليس عسيراً ، على الإطلاق ، لكني لم أسعَ الى هذا ، مطمئناً الى قراري بعدم استعمال السيارة .

من حسن حظ السيارة ، ان البلد قليل الرطوبة والغبار ، وإلا لتآكلت طلاءً وحديداً مثل سفينة غارقة . اقول من حسن حظ السيارة التي لا يعنيني من امرها حتى الآن ، بالرغم من تاريخها الحافل بالتفاصيل المثيرة .

إن كان جرس الباب ، والهاتف ، والميني ماركت ، والسيارة ، أشياء
لا تعنيني ، فليس معنى هذا انني غير معنيّ بشيء على الإطلاق . الواقع أنّ
لديّ ما أُعنى به . لن اذكر الاشياء كلها ، لكني اشير الى عدد منها .
انا ، مثلاً ، اهتمّ بالحديقة الجوانية . ولا بأس في ان اتحدث عنها قليلاً :
إنها على شكل نصف دائرة ، قطرها مترانِ ، وهي ذات ثلاثة صفوف نصف
دائرية من الحصا متوسط الحجم الذي صبغته بطلاء ابيض لمّاع . ليس في الحديقة
الجوانية إلا انواعٌ من الصبّار ، بعضه شائك ، وبعضه ناعم ، ومنه
ما يمكن ان يغدو عملاقاً ... الخ . جئت بالصبّار من اماكن عدة : من اليمن ،
وقبرص ، وجلعاد ، ومن قرية مسيحية لا تبعد كثيراً عن مدينة "ع" ،
ومن حُدود موحشة هنا وهناك . من صبّار الحديقة الجوانية ما يصلح
دواءً لأمراض بينها السرطان وقرحة المعدة والتآليل . انا اعتني بالحديقة ،
ازيل الأعشاب الضارة ، والورق المتساقط من حجرة الزيتون التي تظللها ،
وحين جاء مالك المنزل بالسماد الى حديقته ، أخذتُ جزءاً منه ، وسمّدتُ
حديقتي الجوانية ، في غفلة عن صاحب المنزل ، الذي كان سيتضايق ضمناً
لو طلبت منه بضع حفنات من السماد . في الصباح اتفقّدُ الحديقة ، وفي المساء
اجلس عندها ، لدقائق كأساً او كأسين مع وجبة العشاء . كنت ذكرتُ
التقنف الضائع ، لكن المحافظة مواظبة على المرور بالحديقة كل يوم تقريباً ،
وتحت نخلات في الضحى والظهيرة ، وعصافير تمرق ، واحياناً تزقزق في حجرة غير بعيدة ،
كما ان القطط الشريدة تجتمع في الليل ، حولها ، طمعاً في مشاركتي العشاء الصيفي .
تدريجاً ، صارت الحديقة نصف الدائرية ، مركز العالم ، عالمي . أكملت
النصف الآخر بأن جعلتُ مكتبي يطلّ عليها ، وبالجهاز ستيريو متطور
يمكنني من سماع الموسيقى (كلاسيك ، وجاز) وانا عند الحديقة . قلت
إن مكتبي ، حيث اقرأ ، يطلّ على الحديقة . مع هذا رأيتُ على تناول كتاب ،
والجلوس الى حيث الصبّار ، أقرأ هناك ، حين للشمس ضوء .
هكذا اكتملت الدائرة : الحديقة الجوانية . القراءة . الموسيقى . وانا طبعاً .

●

آخر محطة لي ، قبل المجيء الى مدينة "ع" ، وسكناي هذا الملحق ، كانت بغداد . أيامها ، كانت العاصمة اليوغسلافية مناسبة لي تماماً . الشرطة هناك تتسامح مع بعض شروط الإقامة ، وليست معنية كثيراً بالجنسية الأصلية للشخص ، ولا بطريقة عيشه ، وطبيعة موارده . المطار شبه مفتوح ، وتكاليف الحياة اليومية معقولة ، والنبيذ جيد ، والناس - كما في سائر بلاد البلقان - يأكلون لحم الضأن ، ويعرفون الباميا والفلفل والباذنجان جيداً ، ويشربون السمك النهري حيّاً ، يلبط في الكيس . ثمت كنت اسكن شقة صغيرة في مبنى ذي اربعة طوابق يطل على نهر الدانوب ، بل على فرع الدانوب الذي يخترق بغداد ، وهو الفرع المسمّى نهر سافا . حين استيقظ ، صباحاً ، كنت ألمح النهر يلمع من خلال الشجر . في الشتاء يتساقط الورق ، ويكون النهر مكشوفاً امامي ، حتى في صباحات الضباب يظل النهر حاضراً في المشهد . لم يكن بمقدوري مقاومة إغراء النهر . كنت اهبط السلالم ، بحيوية أفتقدها الآن ، اجتاز الحدائق ، لأبلغ الضفة حيث يقضي هواة صيد السمك . اركض على امتداد الكورنيش ، عشر دقائق ، او ربع ساعة . وفي العودة أتمتع بالمشي الوئيد ، متوقفاً عند هذا الصياد ، او ذاك ، بدون ان أحظى ، ولو مرّة ، برؤية حسكة واحدة في سلّة . في بغداد ، بخلاف باريس ، لا يستطيع المرء ان يتناول قهوة الصباح في مقهى . الناس في العاصمة اليوغسلافية يستيقظون متأخرين . المقاهي كذلك . لذا كنت اقصد أحد تلك الأكشاك التي تقدم الصوصيج الساخن والهمبرجر البلدي واللبن الرائب ، فأفطر كما يفطر الناس المبكرون الى أعمالهم ، بفارق واحد هو انني لا أفتح ، مثلهم ، زجاجة البراندي الصغيرة ، التي يشربونها "دفعة" واحدة ، بل أشربها "رشفة" رشفة ، درجتين درجتين ... لأتمدد راساً اعود الى المنزل ، ارتقي السلالم وثباً ، على الصوفا ، منطرحاً مثل كيس من الريش .

كانت حياتي عند ضفة الدانوب ، هادئة ، بلا مفاجآت .

وكان لي أصدقاء ، اكثرهم من طلبة الدراسات العليا ، وبعضهم من بلدي . وكل اسبوع ، كنت اسهر ، مع اثنين او ثلاثة منهم ، في احد بارات الضواحي ، مرّة او مرتين .

كنا نشرب كثيراً .

5/

لكني الآن ، في مدينة "ع" ، مع الحديقة الجوراسية والكتب والموسيقى .

لماذا تركت بغداد ، وجئت الى هنا ؟

ولماذا قبلها ، تركت نيقوسيا الى بغداد ؟

وفي الدهاس ، لماذا تركت بيروت الى نيقوسيا ؟

القصة طويلة ، وقد لا اتمكن من إتمام روايتها ، فأنا اشعر هذه الأيام بالخطر ، الخطر على حياتي . افكر بمغادرة مدينة "ع" .

إلا اني لم اعد ، كما في السابق ، جاهزاً للمغادرة في دقائق ، بدون ان احمل حقيبة يدوية صغيرة ، او حتى جواز سفر ، كما حدث مرتين .

انا ، الآن ، متعبٌ .

استوى عندي الموت والحياة .

والأماكن فقدت اختلافاتها ، في ما يتعلق بي .

كل مكان خطر .

كنت قررت ان انسى القصة .

لكني تساءلت ، ذات ليلة : اي معنىً سيظل للإنسان والعالم ، لو نُسيت القصص ..؟

كيف يحيا البشر لو نُسيت القصص ؟

ومن أكونُ لو دفنتُ قصتي؟

القصة ، قصتي ، طويلة ، معقدة ، متشابكة الجذور والأصول والفروع ، الى حد الفزع ، الفزع الذي يتملكني ، في النهار والليل ، والذي يبلغني ، وأنا نائم ، في انواع من الكوابيس .

القصة طويلة ، غير اني ممسكٌ بطرفيها :

صديقي علي الركابي الذي قتل ، غيلةً ، في تعاليل بشرقي البقاع ، قرب بعلبك .

والمكالمة الهاتفية الغامضة التي تلاحقني .

قررت ان اكتب القصة ، ليس لأني موهوب ، ولا لمتعة في استحضار أحداث .
السبب ، هو ان المكالمة الهاتفية جاءتني ، هنا ، اخيراً ... هذه المكالمة التي جعلتني اهجر بيروت الى نيقوسيا ، واهجر نيقوسيا الى بغداد ، واهجر بغداد الى مدينة "ع" .
لكن ، كيف بلغتني ، وانا لا ارفع سماعة الهاتف ؟
كان الأمر محض مصادفة ، كما حدث في المرات السابقة .
بعد اسبوع من سكني « الملحق » ، سمعت جرس الباب . كانت الساعة حوالي العاشرة صباحاً . أهملت الأمر . عاد الجرس يرنّ . أهملت الأمر ثانية . لكن الجرس اصرّ على الرنين ، ثالثة . نظرت في عين الكلوب . ثمّت وجهٌ قلبينيّ . وجهٌ ذو شفتين صبيغتين . عدت الى جلستي . لكني سمعت الدقّ على الباب ، بالكفّ . قلت ، إذاً ، عليّ ان افتح الباب . دخلت القلبينية . صباح الخير . انا كنت اعتني بالبيت ، مرة كل اسبوع . هل انت بحاجة إليّ ؟ حسناً ... هكذا سأمرّ ، كل اربعاء ، الساعة التاسعة صباحاً . شكراً ، سيدي . انا ذاهبة .
تدريجاً ، غدت ماريتا الخيط الذي يصلني بالخارج . فهي التي تدفع قوائم الكهرباء والماء ، وهي التي تتصل بالموزّع إذا نفد الغاز ، وتبعث رسائلي القليلة ، وتأتيني بما احتاجه من مأكل ومشرب .
إنها سيدة مهذبة . قليلة الكلام . ماهرة في مهنتها . دقيقة التصرّف .
هي لم تخطئ حين رفعت سماعة الهاتف ، وقدّمتها إليّ ، قائلة : سيدي ، هذه مكالمة خارجية لك ...
اقول ، هي لم تخطئ .
انا كنت السبب . انا لم احذّرها من رفع السماعة . كان تصرفها طبيعياً .
هكذا ، تناولتُ السماعة متوجساً .

• إنني تعنايل ...

انقطعت المكالمة .
كانت ماريتا تنظر إليّ بعينين متّسعتين . لا بد انها لحظت تبدلاً غريباً في ملامحي ، او انها استغربت من انقطاع المكالمة الخارجية بهذه السرعة .
حدث هذا ، قبل ستة اشهر ، اي بعد عام ونصف العام من مجيئي الى مدينة "ع" ، وسكني « الملحق » .

ما ان خرجت مارينا ، بعد إتمامها عملها ، حتى اخذتُ افكر بسرعة .
ماذا عليّ ان افعل ؟ كنت اظنهم فقدوا الاهتمام بالامر ، او فقدوا أثري ، بعد هذا العام ونصف العام ، وبعد العواصف التي اجتاحت المنطقة ... لكن ، ها هم اولاء يعودون . لا بد انهم وجدوا صعوبة في اقتفاء أثري . هكذا اظن ، وإلا لما تأخروا ثمانية عشر شهراً . كيف لم يقرأ عليهم اي تغيير ؟ كل هذه العواصف ، والكلمتان لا تزالان كلمتين : إنه تعنايل ... ، والصوت لا يزال هو هو : بطيئاً ، دبقاً ، كأنه خارجٌ من قاع بئر مئتي الماء .

انا افكر بسرعة ، لا في معنى الكلمتين ، إذ قررتُ في معناهما طويلاً ، منذ المكالمة الأولى في بيروت ، واستقررتُ على انهما تعنيان موتي ، الموت الكفيل وحده بدفن مشهد تعنايل كما رأيته .

انا ، الآن ، افكر في الطريقة التي اتحصّنُ بها ، كي أظل على قيد الحياة اطول وقت ممكن ، من أجل ألا أنسى تعنايل ، ومن اجل ان يعرف واحدٌ او اثنان او مليون شخص ما جرى هناك . لقد صمتُ ، فجأةً ، على ان احفظ لصديقي علي الركابي ذكراه ، وان اجعل هذه الذكرى بين ايدي سواي ممن عرفوا علي الركابي او لم يعرفوه .

القرار السريع ليس من طبعي ، إلا إذا كان دفاعاً خالصاً عن النفس . وأعتقد ، هنا ، انني ادافع عن نفسي ايضاً ، حين ادافع عن ذكرى علي الركابي .

لقد مضى علي الركابي . تناثر جسده على العشب . ولم يُعرف له قبر . ورفاقه في القاعدة ، القاعدة المستقلة ، في القاطع الأوسط ، مضوا جميعاً . لم يكونوا كثيرين . ولم يعرفهم كثيرون . قُتلوا جميعاً في ظروف غامضة ، وغابوا : لا شاهد ، ولا شاهدة قبر .

علي الركابي فقط ، هو الذي كان يأتي الى بيروت من قاعدته ، ليتزود مؤناً وذخيرة ، كل ثلاثة اشهر ، وليعود بعد يومين او ثلاثة الى رفاقه في القاعدة المجهولة . وعلي الركابي فقط ، كان موته شاهدُ حقٍ ، شاهدُ حقٍ وحيدٌ .

وانا ذلك الشاهد ...

عليّ ، إذاً ، ان اتحصن جيداً .

●

كلا ، كيف اتحصّن في هذا المنزل ؟

قبل المكالمة الهاتفية ، بدا لي المكان مناسباً جداً . نوافذ مفتوحة كلها على الحديقة . وإضاءة جيدة في النهار . وفي الليل تخفف مصابيح الشارع العتمة ، الى حد كبير . جدار المطبخ المطل على الحديقة ، عبارة عن نافذة طويلة تكشف كل شيء . وانا استعمل باب المطبخ للدخول والخروج ، تفادياً لاستعمال الباب الأصلي الذي يواجه باب صاحب المنزل ، فأنا اتجنب إزعاج الآخرين حتى لو تنازلت عن حقوقٍ ما .

بعد المكالمة صرت انظر الى الأمور نظرة اخرى .

انا من الناس الذين يحبون ظهورهم بالجدران حينما جلسوا .

وهكذا افعل ، حين اجلس في مقهى ، او مطعم ، او مكتب ، بل حتى حين ازور احداً في منزله . تقول نظريتي : الظهر امن ، والصدر يرى .

فلأهم ظهري اولاً بالجدار ، أما الصدر فحمايته موكولة بالحذر .

لكن الحذر لن يجدي نفعاً في هذا البيت .

أبدأ اولاً بالمطبخ . الباب حديدٌ مطروقٌ وزجاج . والنافذة ، كما قلت ، طويلة تكشف كل شيء . اينما جلست كنت هدفاً سهلاً . الرصاصة قد تأتي من الباب او من النافذة . لا زاوية اتحصّن بها في المطبخ . إنني مكشوفٌ تماماً ، كأني في العراء ، كأني الثلاجة التي تعلو ظهرها ، عادة ، الى الحائط .

انتقل الى غرفة الاستقبال المتصلة بالمطبخ . الجدار المطلّ على الحديقة هو ايضاً عبارة عن نافذة طويلة . وعلى افتراض انني هربت من غرفة الاستقبال فإن أقرب مكانٍ إليّ هو المطبخ ، وقد ذكرتُ انه مكشوفٌ . المكان الآخر المتصل بغرفة الاستقبال والذي بإمكاني بلوغه سريعاً ، هو غرفة مكتبي . مشكلة الغرفة أنها مكشوفة ايضاً لنافذة الحديقة ، وهي كذلك حديد مطروق وزجاج . ولا زاوية فيها للاختباء ، إطلاقاً .

بقي من البيت ، غرفة النوم ، ومصيبتها انها ذات نافذتين واسعتين تطلان على الحديقة ايضاً ، وتكادان تبلغان الأرضية . هنا بإمكان الرصاصة ان تخترق صدرك او جنبك ، او رأسك إذا كان القاتل حذّافاً متوسط المهارة . الحمام وحده ، ذو نافذة ضيقة عالية . لكن بإمكان اي شخص ، حتى لو كان قصير القامة ، ان يدهمك قنبلة يدوية من هذه النافذة .

وعلاوةً على ذلك : كيف يختار شخصٌ ، المرحاض ، مكاناً لموته ؟

عدن 1987

في ضحى ، قائظ كالعادة ، كنت عائداً للتو ، من سوق السمك بـ «خور مكسر»
ومنهمكاً في تنظيف حملة كبيرة ، بالمطبخ .
رنّ جرس الباب . لم أكن انتظر ان يزورني احد في مثل هذا الوقت ،
بخاصة ، وانا في انهماكي المزعج ، [redacted] وصدفُ السمك يتطاير
على ملابسي وأرضية المطبخ ، وعلى رأسي ايضاً .
رنّ الجرس ثانية . اسرعت الى الباب ، والسكين لا تزال في يدي ، والصدف
على ملابسي .
فتحت الباب .
كان علي الركابي ماثلاً امامي ، بهيأته المألوفة . سروال الجينز ، وقميص المربعات
القطن ، والرأس الحليقة تماماً ، المستديرة تماماً .

•

مع الشاي الذي اعددته ، على عجل ، بدأ علي الركابي حديثه المتوتر :
« لم يبق لديّ ما أفعله هنا . يجب ان اترك هذه الزاوية . انا هنا منذ ثلاثة أشهر .
عرفت منذ زمن انك هنا . منذ ضم سنوات . تماماً بعد الخروج من بيروت .
كنتُ عند الميناء ، ورأيتك تغادر . رأيتك تقفز بمهارة من شاحنة الجيش ،
وتتجه الى السفينة . سمعت فيما بعد انك كنت في معسكر حضرموت ، ثم جاؤوا
بك الى عدن . انا لم اغادر مع المغادرين . تسللتُ الى البقاع . وفي البقاع
استطعت ان اتصل بخمسة ممّن تبقّوا من رفاق القاعدة القديمة . وطيلة هذه
السنوات ، من ١٩٨٧ حتى وصولي الى عدن ، كنت في حركة مستمرة . حاولت
ان افعل شيئاً كبيراً . اكبر مما تتصور . سأحكي لك . لا تستعجل . لم ارد
الاتصال بك من قبل . اليوم جئت اودّعك . سئمت المكان . رطوبة
الجو والمكاتب والخليج الذي لا تصخب امواجه . وسأقول لك شيئاً ...
إنني لا أشعر هنا بالأمان ».

•

قلت: « ألستَ في المعسكر ؟ أليست الحراسة مشددة على الباب النظامي ؟ »

قال: « تركتُ المعسكر . المشكلة ليست في الباب النظامي . انا لا اشعر بالأمان من حولي . لقد اختلفت الأمور كثيراً . طلبت نقلي من المعسكر ، وانا اسكن في شقة من غرفة واحدة في الشيخ عثمان . أفضلُ امانٍ هو الأمان الذي يحققه الشخص لنفسه . انا ادبّر حياتي ، كما تعرف ، لكن الأمر أعقد بكثير . في شقة الغرفة الواحدة ايضاً قد اتعرّض للخطر . لهذا قررت ان اغادر عدن . سأعود الى البقاع ، الى تعنايل تحديداً ، ومنها أتسلل الى بيروت . لا بد من ان اقطع الخطوة الأخيرة . هنا ، لم يعد لي ما افعله . أحداث ١٩٨٦ خلخلت البلد حتى الأعماق . وانت اليوم ، لا تدري ما يحدث غداً . انا جئت لغرضٍ محدد ، وقد توصلتُ الى ما اردتُه . البقاء اكثر ، يعني خطراً اكبر ».

قلت ، وانا انظر الى صدَف السمك على ذراعي : « علي الركابي في الخطر ، كالسمكة في الماء . اسمع يا علي... انا اعتقد ان الأمان هنا هو ما تفرّ منه من المكان ، وليس الخطر الموهوم الذي تتحدث عنه . دعني الآن اهتم بأمر السمكة قليلاً ... ».

نهضت الى المطبخ . اتممت إعداد السمكة ، ووضعتها في الفرن .

يبدو ان علي الركابي استبطأني ، مع اني لم امضِ في المطبخ اكثر من عشر دقائق . جاء في صوته : « اين انت ؟ ».

عدت اليه ، بعد ان استبدلتُ بقميصي ذي رائحة السمك ، قميصاً نظيفاً .

قال: « انت تعرفني جيداً ، لكن ليس الى الحد الذي تعرف فيه كل شيء ».

قلت: « وما حاجتي الى ان اعرف كل شيء ؟ انا اعلم جيداً أنّ عليّ ألّا أسألك كثيراً . لكل امرئ أسراره ».

قال: « من الأمور التي جعلت علاقتنا تدوم ، أنك لا تسأل كثيراً . انا اقدّر هذا الجانب فيك ، فهو دليل احترامك الآخرين وشعورهم الخاصة . إنك اليوم مضطرٌ الى ان ابوح لك بسرّ ، كي تساعدني ». أشعلت سجارة ، وأخذت منها ثلاثة انفاس قوية . علي الركابي لا يدخن .

قلت : « امن الضروري ان تكشف لي سراً ؟ »

ابتسم ، وهو ينظر عميقاً في عينيّ ، مائلاً بصدره إليّ : « ضروري جداً ... »

لا بد من القيلولة في عدن ، خاصة بعد وجبة سمك ثقيلة كالتي أكلناها اليوم ، وزوت انا، الأمر ، سوراً ، بشربي قنينتي بيرة ، قبل الغداء ، ومعه . تمددت على الأريكة ، وظل علي الركابي في مجلسه . كان يبدو عليه قلق خفي ، خفيف ، يتجلى في حركة يديه حيناً ، وفي رمشات عينيه حيناً آخر . وقد انتقل قلقه هذا إليّ ، فلم أغمض عينيّ ، منتظراً كل لحظة ، كلمة منه . تركني امدد دقائق . لكنه لم يستطع ان يتركني استمر هكذا .

قال : « من متاعبي في عدن ، هذه القيلولة اللعينة التي تهبط عليّ رأساً مثل غيمة ثقيلة . انت تعرف أنني قليل النوم ليلاً ، فكيف النهار ؟ قررت ان اقاوم القيلولة ، لكنها تغلبني . ما العمل ، إذاً ؟ لكني اليوم افضل حالاً . التكييف في شقتك ممتاز . إنه يمتص رطوبة الهواء ، ويأتي بالبرد ، لست ادري من اين . اليوم لن ادعك تنام . لديّ كثير من الكلام ... » .

فركت عينيّ . تركت الأريكة حيث كنت ممدداً ، وجلست على كرسي .

قلت له : « أعهدك قليل الكلام ! » .

لم يبتسم .

كان يبدو منشغل الذهن حدّ الغياب عن جوّ الغرفة .

قال : « يجب ان تأتي معي اليوم » .

سألت : « الى اين ؟ »

قال : « الى فندق الجولدمور » .

قلت : « امرٌ غريب . انت تحذر امثال هذا الفندق » .

قال : « الأمرُ ضروريّ . انت ايضاً ضروري » .

قلت مبتسماً : « الى هذا الحد ؟ » .

قال : « الى هذا الحدّ . يجب ان تأتي معي لأنك ستكون المترجم » .

قلت : « الهو احد دلوماسييك ؟ » .

قال : « لا ... إنه الفولي يعرف اللغة الانجليزية ، من جماعة سافيمبي » .

سألته : « وما الذي جاء به الى هنا ؟ » .

قال : « الصاروخ . صاروخ ستنجي ! » .